فظن ان هذه النزلة مسببة عن نوع من الجراثيم الحية اترددها عليه في ميعاد مخصوص من السنة . فنظر الى السائل الخارج من انفه بالعطاس الشديد فوجد فيه اجساماً صغيرة تتحرك من نفسها وهي صغيرة جداً بحيث لو نُظم مئتان وخمسون منها في سطر واحد رأساً لعقب ما بلغ طولها كلها الاَّ نحو ملليتر واحد ولذلك لا ترى الاَّ بالميكرسكوب القوي . ووجد ان حركتها تزيد اذا كان السائل سخناً وتقل اذا كان بارداً . وكان يعلم ان مذوّب الكينا يميت الاحياء الصغيرة فاذاب قليلاً من الكينا في الماء ونام على ظهره وجعل يقطر الماء في انفه فانقطعت النزلة وصار يمكنه ان يقيم في الشمس ولا يحتريه العطاس وكرّر قطر مذوب الكينا في انفه بضعة ايام فشفي من النزلة تماماً . وامثال ذلك غيرهُ فكانت النتيجة واحدة . فهذا علاج قياسي عُرفت فيه حقيقة الداء وحقيقة الدواء واذا عرف الناس حقيقة كل داء من الادواء لم يعسر عليهم ان يجدوا لكل داء دواء . وهذه هي الغاية الجلّى التي يسعى اليها العالمون بالطب والعلوم الطبيعية عموماً

وخلاصة ما تقدم ان في الهباء المتطاير في الهواء جراثيم كثير من الامراض المعدية والانسان عائش في وسطها فلا يخيبه منها الاَّ جودة صحته وعدم استعداده لنموها في بدنه

نجاح العرب بتحسين لغتهم

لجناب المعلم نعمة افندي شديد يافث

لكل قوم ما تعوّدوهُ من العادات وما اكتسبوهُ من التقليدات فاذا استحكمت فيهم صعب عليهم تغييرها . وانتقالهم من اطوار حياةٍ الى اطوار أُخرى يقضي بتبديل ما أَلِفوهُ من العادات وما رسخ فيهم من التقليدات والاَّ ما تسنّى لقومٍ ابتغوا العمارة ان يتصلوا بالغايات السامية ولا توفرت لهم اسباب الترقي لكي يطالبوا بالنجاح والتقدم وكان انتسابهم الى العمارة والعمران والمدينة والمدنيَّة من النسب الباطلة بل من التُّهم التي لا تعرض على ديوان الحقّ حتى تكشف حقيقتها وتتبيّن كنهها وتُرمى كما يرمى النَّوى

هاتوهي حالنا ايها الناطقون بالضاد وهاتوهي نسبة التقدم والعمران الينا . أُتيح لكم باختلاطكم وامتزاجكم بقوم المغرب واستعذبتم عسل الرفاهية واستحسنتم المدينة وفضّلتم حالها على حال السذاجة والبداوة وما انتم بذاهلين . لكنكم ركبتم متن الشطط وامتطيتم صهوة الباطل اذ غرب عن بالكم وانتم نيام على بساط التقاعد ان دون العسل إبَر النحل وتهتم في نيافي الضلال اذ لم

تدرول ما انقضى من الازمان وما سفك من الدماء في عالم المدينة للتوصل الى استعذاب عمل الرفاهية والسكر بخمر الفنى

دخلتم المدينة فرأيتموها آهلة بالسكان مزيّنة بضرورات ولوازم العمران فدهشتم ورغبتم في التزيي بها وتظنّيتم ان ذلك هو عمرانكم وعمران مدينتكم وما مضى عليكم أمد مديد حتى شعر اكثركم بان ما رأيتموهُ في المدينة الجديدة ليس بالعمران والمدينة ولا باسبابهِ التي توصل بالمرء اليهِ بل هي غاياته . واما اسبابهُ الحقيقيّة فليست بالظاهرة بل هي في العقول والاذهان فاذا برزت من مصادرها القانونية وضحت غايات المدينة وتسهّل الوصول اليها دون معاناة المشاق ومقاساة المصاعب

كان الاليق بنا نحن الناطقين بالضاد سكان سوريا وفلسطين ومصر والعربية ألاّ نخلع شعار العيش ببساطة قبل ان نقتلع بايدينا الاشواك التي تحول دوننا اثناء انتقالنا من طور السذاجة الى طور المدينة قبل ان نهيّئ عقولنا ونعدّ ابداننا للتزيي بالزيّ الجديد لكن سبقَ السيف العذل فالندم على ما فات لا يجدي نفعًا واصلاح حالنا سهل اذا نهض القوم وامعنوا النظر في احوال ترقي الامم الثابت الى العزّ الاقعس . ولن يُتدبَّر الحال ويُسلَك المنهج القويم الى المدينة تخرب البيوتات العظيمة التي قامت في المشرق ويهلك معظم الامة شهداء الفقر المدقع الطاريء عليها بالانتقال الفجائي . والاصلاح طرقهُ كثيرة يبدأ باجدرها اعتبارًا وهو سرعة اكتساب الملكة في اللغة العربية لكي يتسنّى للفرد التحلّي بحلى العلوم والآداب والصنائع وما اشبه من دواعي التقدم والفلاح

قد افتكرت طويلاً فيمَ هو الداعي لتاخُّر اكتساب هذه الملكة مع كثرة الطلبة ووفرة الكتب فنسبت ذلك الى اسباب ذات شأن وهي تعدد الكتب في النحو والصرف والبيان واللغة مع كثرة اختلاف المذاهب بين اهلها وتعدد الآراء في التأليف اذ كلٌّ يبتدع لنفسهِ طريقًا جديدًا واصطلاحاتٍ حادثة فتتضارب طرق التحصيل في الفن الواحد . هذا مع عدم الاحاطة لانهُ لا يتسهّل لك التوصّل الى مرغوبك واشباعك نفسك في النحو مثلاً بدرسك مطوّلاً من المطوّلات ذات المجلدات الضخمة فان العلاّمة الصبان مع كثرة تدقيقهِ واقاضتهِ في الشرح واعتمادهِ على ان يضمّن كتابهُ كل مسائل النحو يذهل عن كثير من المسائل الدقيقة التي تذكر في بعض شروح المختصرات وضوابط مهمّة صرفيّة لم يذكرها احد من علماء الصرف في كتبهم المتداولة ولا يعثرك عليها غير الاتفاق اثناء مطالعتك كتب اللغة او شرح كلمة في بعض شروح الدواوين الشعريّة . ومما هو اجدر ذكرًا من هذا كلهِ ان اكثر المسائل الدقيقة في الصبّان وغيرهِ من الكتب الشهيرة

لا تحصّل في ابوابها الخاصّة بل ترى منثورةً في حواشي الكتاب عند التنبيه الى اعراب كلمة او تفسير جملة او تأويل آية . وعليهِ فاحكم ان النحو والصرف والبيان كلها ليست بالعلوم التي تبوّبت وترتّبت لكي يصحّ ان يطلق عليها اسم علم واذا طلب مني الدليل فانا اقوم بهِ وقت الحاجة ولا اعدم الحقّ من الابانة والايضاح لمن ينكر ذلك

وهذا الخلل ايضاً واقع في كتب اللغة فان اكثرها ينظر الى اللغة بالمجهر (التلسكوب) ولا يراها لبعدها الشاسع عنه ولا ترى لاحدٍ حكماً ثابتاً . هذا هو الفيروزابادي صاحب القاموس تعدّ اغلاطهُ بالمئات ينبئك عنها جاسوس العلّامة الشيخ احمد افندي فارس الشدياق . وهذا كتاب نادرة دهرهِ وبديعة عصرهِ العلّامة الحريري الموسوم بدرة الغوّاص في اوهام الخواص فهو مملوء من الاحكام الساقطة ينبئك عنها كشف الطرّة عن الغرّة . هذا فضلاً عمّا في كتب اللغة من سوء الترتيب وصعوبة التحصيل بعدم الضبط اذ انهم يخلطون الاسم بالفعل والمجرد بالمزيد فمن هذه الحيثيّة يكون كتاب محيط المحيط للعلّامة البستاني احسن مبنًى واوضح اشارةً واسهل تحصيلاً . ومع ذلك فان المطوّل منها لا يتضمن المختصر وزيادة . فشأنها من هذا النحو شأن كتب النحو اذ انك لا ترى طوراً في التحاح ما تراهُ في المصباح ولا في القاموس ما تراهُ في الاساس فاللغوي يضطرُّ اليها كلها من تاج العروس الى مختار الصحاح مع غيرها من الكتب غير المقصودة في اللغة كشروحات بعض دواوين ومقامات وافعال مجموعة واوهام منبّه عليها وهلمّ جرًّا . فلكي يكون لغوياً ثقةً يقتضي لهُ ان يصرف ما يتيح لهُ القدر من السكنى في هذه الدار مع الدراسة الدائمة ومطالعة الكتب المتعدّدة وصرف الاوقات كلها بالحادثات اللغوية فيحرم من لذة العلم الشهيّ ذي الفوائد الجمّة لكي يجني ما تفرّق وتشعّب من المذاهب والآراء بين البدوي والمصري . وعدم ضبطها بالشكل من المشاكل التي تنقضي على الانسان بالنصب الكثير والحيرة والارتباك . فهذه موانع حريّة بان ينظر اليها بنظر الاستبصار والاعتبار ويجرّد من جرّاءها المبضع والمشراط قصد ان نقطع ونتدفن شأن الاعضاء الفاسدة في الهيكل الحيواني . ولا يتم ذلك الاّ بتالف عصابة تبحث في علوم اللغة وكتبها بحثاً دقيقاً وتربط ما بهمّ الكاتب البليغ والشاعر المفلق والخطيب المصقع من المباني الاصولية والضوابط اللغوية بحيث يتسهّل على الطالب كل ذلك ولا يقضي العمر في نضال آراء دوّنها العلماء ونشبّث بها اصحاب العقول الضعيفة الذين يدهشون باعراب جملة او تبيين نكتة بيانيّة ويعتدون بمن يتقن ذلك ويحصل على ملكةٍ من هذا القبيل كمن أوتي الحكمة وبلغ غاية العلم . وعليهِ فالناحي والشاعر والناثر واللغويّ في الامصار العربية ذو شأن لا يقدّر وكثيرون من هذه الامصار يرفّعون اقدار هؤلاء العلماء حتى يرقوا بهم درجةً تسمو على

درجة ارباب العلم الطبيعي والرياضي الذين هم بالحقيقة فوارس ميدان التمدن الانساني وابطال مضماره . وليس شأننا على ما يظهر شأن اصحاب النظر الذين يفرضون فرضًا واجبًا على كل فرد ان يحسن الكتابة في لغته ويفهم كلام العرب والاّ يعدّ مخطًّا عن الانسان الحقيقي المطالب بالفهم والتفهيم فنحن ابناء اللغة العربيّة من واجباتنا اتقان لغتنا لكي نقتدر على فهم كتب اجدادنا وان نفهم غيرنا ما استكنّ فينا من الخواطر بلغة عربيّة فصيحة غير ساقطة الى الدَرَك في سوء التعبير والتركيب

وهذا التحسين اللغويّ ضروريٌّ في بدء عمراننا ولا نتمكّن من الوصول الى درجة تذكر في العلم الطبعي والرياضي قبل ذلك التحسين لانهُ لا ينقضي عن الهفوات اللغوية والضعف في التركيب ولا تطاق التخانية في كلام اهل العلم . ولاكتساب الملكة العربيّة يقتضي ازمان طوال وهذه المدد المتطاولة التي تصرف في تحصيل اللغة انما هي بالاكثر معظم الاوقات التي يتفرّغ فيها الانسان للدراسة والتعلّم . واكتساب غير العلوم اللغوية ضروريٌّ لقيام العمران العربيّ . واذا وقفنا الحياة على درس اللغة يرجع بنا المطاف الى السكنى في البادية حيث نحتال على المعاش بضروب الغزو والنهب وغير ذلك من صنوف التحصيل البدوي كما كانت حال العرب في الجاهلية قبل الاسلام . وهذا التحسين اللغوي جرى على جميع لغات العالم المتمدّن في اطوار هبوبها من سنة الجهل فلغة الانكليز في هذا الدهر ليست لغتهم منذ ثلاثة او اربعة قرون ومثلها لغة الفرنسيس والروس وغيرهم . ومن يتجمعنا على اصلاح لغتنا قومُ يونانَ الذين اشتهرت لغتهم بحسن التعبير وحسن السبك وسعة النطاق حيث اصبحت مصدرًا تنبعث منهُ جميع الاصطلاحات العلميّة والصناعيّة والزراعيّة في العالم المتمدن قديمًا كالعرب وحديثًا كالفرنسيس والالمان والانكليز والروس وغيرهم من الشعوب الراقية الى ذرى التمدن في المغرب . ومعلوم من الشأن وما كتب فيها قديمًا من الكتابات النفيسة لم تراعَ بل اضطرّ القوم الى حصرها وتهذيبها فدوّنوا اللغة في كتاب اثبتوا فيهِ المهمل والمستعمل واشاروا الى المهمل بوضع علامة تميزهُ عن غيرهِ . والمراد بالمهمل ما يحظر على اليوناني استعمالهُ في هذا العصر مع انهُ مثبوت في شعر هوميروس الشهير او في كتابات فلاسفتهم وخطبائهم كسقراط وديموستينس . وقد جرى تهذيبهم في القواعد ايضًا وحظروا على القوم استعمال ما جوّزهُ القدماء لا على سبيل القياس . فانظر الى التطاول الذي تطاولوهُ على اللغة التي كانت تعتبر في كل الادهار الغابرة اسمى اللغات اذ هي لغة اسمى الاقوام وارقاهم في ذلك العصر . ولا عتب عليهم ولا ملام اذ ان للضرورة احكامًا . وهذه الضرورة عينها هي التي تضطر الامّة العربيّة للنظر في امر اللغة غير اننا لا نشير ولا نرغب

في المطاولة على لغتنا كما تطاول قوم يونان على لغتهم بل نحث القوم على الاصلاح بتسهيل المنهج واتحاد الاصطلاح والترتيب بحيث يكون في الفنّ مختصر ومتوسّط ومطوّل لا غير مبوّبة ومرتّبة على ما المحنا اليه في صدر المقالة

وهذه مندوحة لابراز ما استكنّ في خاطري وهو امرٌ اذا بودر اليه تمكّن العربي من ضبط اللغة في قراءته وكتابته ولربما في كلامه . ألا وهو ابدال حروف الهجاء مع الحركات بحروف أُخر تتضمّن الحركة فيكون عالمنا على هذا القول ان نضع للحرف صورًا اربعًا متباينة وهذه الصور ليست بالصور الكثيرة التي تتعب المبتدئ في حفظها اذ هي تقريبًا بقدر عدد الصور التي للحروف المصوّرة عندنا اليوم . لان على المبتدي عندنا ان يتعرف بالحرف في ست عشرة صورة ونحن لا نرسم له في هذا المبدإ سوى اربع هيئات . فيخف التعب ويتوفّر الوقت في التعليم . هذا علاوة عما يصدر عنه من الفوائد المهمّة اذ التلميذ على هذا يتقن القراءة في كل كتاب في مدة لا تزيد عن الشهرين ويتوفّر وقت عظيم على طلبة اللغة اذ لا يعود الى طريق الحدس والتخمين في ضبط الكلمة ولا يحتاج ان يتقرّ عنها في معجمات اللغة لانكم تعلمون ان صورة احرف الكلمة تنطبع في الذاكرة مجرّدة عن الحركات لان اكثر كتبنا وكل جرائدنا خالية من الضبط . فلو شاء احد ان يضبط كتابًا بالشكل الكامل لاحتمل من المشاق ما لا يقدّر فضلاً عمّا يتكبدهُ من المتاعب وقت التصليح اثناء الطبع وما يقاسيهِ جامع الحروف من الصعوبات . فالتنقير عن الكلمات في معجمات اللغة لمعرفة ضبطها امر ليس بسهل اذ لا قياسية لاكثر اوضاعنا ولا صور تامّة تنطبع في ادمغتنا عند تحصيلها وهذا من اعظم المشاق واثقلها وطأةً على طلبة اللغة ولهذا السبب يشار اليهم بالبنان لنزارة عددهم . فاذا رممنا بحروفنا وحركاتنا الى ما وراء البحر واعنفنا هذه الصور الجديدة نتحرر من نير الصعوبات التي تتراءى لكل طالب في سيره . وهنا اترك البحث لتجّار الكتب وارباب المطابع واصحاب الامر والنهي لكي ينظروا في صلاحية هذا الرأي من وجه مالي مطبعي فاذا رأَوهُ موافقًا وقدّروا رجحان ربحهِ على الربح الذي تحصّل لهم من الخطة السائرين عليها مذ عصر قديم كان اتباع ما نحن بصددهِ أولى . والاّ فلينظر اهل الذوق وارباب العقول ويعدّوا الخلل الحادث من استعمال هذه الحروف والحركات اذ الصعوبات التي يقاسيها طلبة اللغة من هذا القبيل لا يختلف فيها اصحاب النظر الدقيق . ولولا الاطالة لافضتُ في هذا الموضوع واشبعت القول غير ان فيما ذكرت تبصرةً لاولي الالباب